مُهِمَّاتٌ تربويَّة

رمضان ١٤٤٦ من الهجرة النبوية

تقديم

أنا هيد بنت عيد السمبري

غفر الله لها ولوالديها

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله -عزَّ وجلَّ-، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء الثامن والعشرون يوم الجمعة 28 رمضان

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نحمد الله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ونسأله بمنّه وكرمه أن يختم لنا بخير، وأن يجعلنا دائمًا من أهل الخير، الثابتين عليه، الراغبين فيه، المرغّبين الخلق في هذا الخير. نحن من فضل الله ومنّته ومن نعمائه علينا نعرف الخير، فنرجو من رب العالمين -كما علمنا الحق والخير- أن يجعلنا من أهله، وأن يجعلنا داعين الناس لهذا الخير. والله قد اختار لهذه الأمة دين الإسلام، واختار هذا الدين -سبحانه وتعالى- على علم منه، وبحكمة عظيمة -سبحانه تعالى-، هذه الحكمة تظهر في شرع رب العالمين، تظهر في إرشاد رب العالمين للأفراد وللمجتمع.

فالدين دين الإنسان، دين الفرد، دين المجتمع، يقوم به آحاد الناس، ويقوم به المجتمع.

هذه المقدمة لكي نناقش اليوم مهمة من المهمات التربوية العظيمة التي أرشد إليها رب العالمين في مجمل سور، ثم

سنقف -إن شاء الله في نهاية مجموعة هذه السور- أمام آيات ترشدنا بوضوح لهذه المهمة.

كما نعلم، هذا الكتاب العظيم حمل لهذه الأمة التي اصطفاها الله، حمل إليها كل خير، وأرشدها إلى كل خير، وأمرها بكل خير.

ومن ذلك: الاهتمام بالزوجة والأولاد وتربية الأسرة، جعلها الله أمانة في أعناقنا «كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيتِهِ»[1] جعلها الله أمانة في أعناقنا نُسأل عنها يوم القيامة. وأمرنا -عزَّ وجلَّ- أن نقي أنفسنا وأهلينا النار، وحذّرنا من أن نضيع هذه الأمانة؛ لذا نجد سور متتالية تكلمنا عن الأسرة وعن أحكام متصلة بالأسرة، تكلمنا عن حق الزوجة، حق الأولاد، بل وتحدثنا عن أن هذه الحقوق إذا لم يقُم بها أهلها وعَتوا عن أمر ربهم ستكون النتيجة: هلاك هذه القرية، وهذا كان واضحًا في سورة الطلاق بعد الحديث عن أحكام الطلاق، أتى قوله تعالى: (وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا)، وهذا إشارة إلى وقوع الظلم في مسألة الطلاق؛ لأن هذه القرية عبارة عن مجموعة بيوت، كما أن الأمة عبارة

---

[1] () أخرجه البخاري (5200).

عن مجموعة أفراد، فهذه القرية، أو هذا المجتمع مثل البناء، إذا سقطت لبنات من البناء، كان هذا إيذانًا بأن البناء سينهار؛ لذلك حينما تنظر لسورة مثل سورة الطلاق، ترى تحذير الرجل من ظلم المرأة، وأيضًا المرأة من ظلم الرجل؛ لأن هذا حاصل وهذا حاصل، وإن كان الأكبر عند الرجل، الظلم الذي ممكن أن يكون أقوى عند الرجل في مسألة الطلاق، لكن هذا لا يعني أن المرأة لا تقع في الظلم في طلبها للطلاق، أو في طلبها للنفقة بعد ذلك. هذه التفاصيل المعلومة.

ترشد الشريعة إلى أن هذه المسألة الخاصة في الأسرة يمكن أن تهدم قرية، تهدم دولة! لذا في النصف الثاني من سورة الطلاق رب العالمين يكلمنا عن انهيار وسقوط الأمم. هذه القرية التي عتت عن أمر ربها وأمر الرسل، كيف حاسبها الله حسابًا شديدًا، وكيف أن الله عذبها عذابًا يظهر نكرانه من شدته (فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا) وكانت عاقبة أمرها أنها في خسارة، هذا في الدنيا وينتظرهم في الآخرة الشيء

الكثير من العذاب، نعوذ بالله! تصور كم للأسرة من شأن عند رب العالمين!

لو تتبعنا هذا الجزء الذي بدأ بالمجادلة وانتهى بالتحريم، وستكون وقفتنا مع **سورة التحريم**، هذه السور أتت بعد سورة الحديد التي كانت تكلمنا عن مسؤوليتنا عن الإيمان والإنفاق في سبيل الله لنشر الدين، آمنوا وأنفقوا، انشروا الدين، أنتم مسؤولون عن نشره، استخدموا أموالكم في نشره. هذه القوة استخدموها لنشر الحق.

ننتقل مباشرة بعد سورة الحديد التي فيها الحديد والقتال، والمال الذي يُصرَف لأجل الجهاد، تنتقل من هذا إلى سورة المجادلة، وكأنه يقال: فلننشر الحق على الخلق ولنجتهد في ذلك، لكن لا ننشغل عن أساس البناء، عن اللبنات الأساسية في البناء.

وهذا يدل على أهمية الآداب والأخلاق، فهذه **المهمة التربوية** التي يراد الالتفات لها، أنه على أهل الإيمان وأهل الصلاح أن يعمروا البواطن بالخير، وينشروه على الخلق، ويبتدؤوا من دواخلهم ودواخل أسرهم، ثم ينطلقون بعد ذلك.

وهذا الأمر عجيب في ترتيب سور القرآن. هذا المعنى نفسه يمكن أن تتصوره حينما تقرأ سورة محمد، تسمى سورة القتال، ثم تقرأ سورة الفتح التي هي تتميم لهذا المعنى، ثم وأنت تقرأ في ترتيب المصحف تجد سورة الحجرات وهي نقلة بعيدة -في تصورنا- عن القتال، الفتح، وسورة الحجرات تركز على الآداب والأخلاق. فكأنه يقال: لا يكن هناك التفات تام للخارج وترك الداخل ينخر فيه السوس! أو بصورة أخرى:

لن تستطيع أن تحافظ على الفتح إلا بآداب في الحجرات.

الفتح العظيم إنما هو وليد تلك الحجرات التي وصف أهلها إنهم: قائمون، صائمون، مصلون، عابدون، مستغفرون، تائبون. وهكذا يحصل هذا التوازن العجيب. المجتمع المسلم بناؤه، مقاومته للشر، تكون من الداخل.

فتصور مع تقسيم الأجزاء القرآنية من المجادلة إلى التحريم كأنك تسمع عن الأسرة المسلمة، تبدأ وتنتهي بالأسرة المسلمة. واضح أن المجادلة كانت موقفًا خاصًا لزوجة مع

زوجها، وظهر فيه كمال رب العالمين، وكمال تشريعه -سبحانه وتعالى-

ثم تتابع علينا السور وترى سورة الحشر والممتحنة والصف والمنافقون، كل هذه السور تتكلم عن أخلاق المسلمين مع بعضهم، وتتكلم عن خطورة تفرقهم وأهمية اجتماعهم، وخطورة اليهود والمنافقين عليهم. هؤلاء هم أشر الشر في داخل المجتمعات الإسلامية يتغلغلون ويبثون شرهم، وهم -كما سيأتينا في الآيات في سورة التحريم- من أسباب إفساد المرأة المسلمة.

تصور سورة المنافقون ثم سورة الصف ثم سورة الجمعة كأنك تتصور أن المنافق هذا سيكون حريصًا على هدم صف المسلمين وعلى تفكيكهم. لكن هذه الجمعة هي التي تجمع المسلمين، وتجدها عيدهم الأسبوعي، يتطهرون ويتأنقون ويظهرون في أبهى مظهر، ويجتمعون، نسأل الله أن يكون اجتماع أبدان واجتماع قلوب.

هذا الأمر يعيدنا مرة أخرى إلى أن هذه الأسرة واللبنة هي التي تحث أبناءها على صلاة الجمعة وتدفعهم إليها، وهذا

الأب الذي يأخذ أبناءه معه، كل هذا إشارة إلى أن **اللبنة الأساسية لصلاح المجتمع هي الأسرة.**

نقترب أكثر من موضوعنا وتأتينا سورة الطلاق وسورة التحريم، وسورة الطلاق أظهرت كيف تنهي هذه العلاقة، حينما يكون هناك استحالة لإكمالها، وهذا شرع يشكر عليه رب العالمين، وكل شرع الله يشكر عليه. لكن هذا الشرع يشكر عليه لأنك ترى كيف يصل الأمر بالناس عندما يجدون أنه لا طريق للخروج من هذه العلاقة، كل الطرق مغلقة فتجد الخيانة، تجد القتل، تجد الحيل، أمور كثيرة بسبب أن طريقًا شرعيًا سُدّ فتأتي الطرق غير الشرعية التي تفسد المجتمع.

مسألة الفراق قد تكون كمسألة الزواج، إذا كان الزواج أمرًا طبيعيًا، طبع الله عليه الإنسان، شرعيًا، جعل الله له طريقة شرعية، كذلك الطلاق يمكن أن يحصل نفرة، وهذا شيء من طبيعة الإنسان، والله -عزَّ وجلَّ- جعل له إجراءات بحيث يصير هذا الأمر شرعيًا أيضًا.

بعد سورة الطلاق تأتي سورة التحريم التي بدأت بعتاب النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- يرشده كيف يكون التعامل مع الزوجة، والتعامل مع الزوجات في الشريعة، مأمور الرجل أن يعامل الزوجة بلطف، لكن التوازن مطلب شرعي.

فهنا أتى في سورة التحريم موقف حصل بين الزوجات الكرام، والنبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- أعظم الخلق، وكيف أن النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- مراعاة لهم حرّم على نفسه العسل الذي كان هو الموضوع، الذي كان له رائحة معينة، فلما حرم على نفسه شيئًا مباحًا، جاء العتاب من عند رب العالمين. لكنه مباح ومنع الإنسان نفسه من هذا المباح شأنه بمعنى أنه لا يدخل فيه حكم شرعي، هكذا نتصور. لكن في الحقيقة إن في هذا الموقف أمرين؛ لذلك جاء العتاب:

أولًا: جاء هذا العتاب حتى لا يسير أحد على هذا الطريق فيحصل له الضلال، النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- فعل في هذا الموقف فعلًا مباحًا، منع نفسه من شيء مباح. لكن يمكن أن يتذرع الناس بعد ذلك بفعل النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- فيتركوا شيئًا من الدين أو من الواجبات ابتغاء مرضاة

الزوجات مثل أن يترك صلاة الجماعة ويترك إطلاق اللحية، فجاءت سورة التحريم لتضبط هذه العلاقة.

إذًا النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- أسوة وهو لم يفعل الخطأ، لكن يُخشى أن يتذرع الناس بفعله ويفعلون الخطأ، هذا من جهة وهي الجهة المهمة.

وثانيًا: أن الزوجات الكرام -رضي الله عنهن جميعًا- يُرشدن من خلال السورة أن يفعلن ما يجعل الأسرة في أحسن حال. فلا تفعلوا أفعالًا يمكن أن تشتغل الأسرة -بسبب هذه الأفعال- بأمور يجب ألا تشتغل فيها، أمور لا يذهب الوقت فيها والجهد.

فجاءت سورة التحريم لتضبط هذ العلاقة، المعاملة يجب أن تكون لطيفة بين الأزواج وزوجاتهم، لكن لا يصل الأمر إلى درجة أن يُحرَّم حلالًا ويُترك معروفًا.

وننظر إلى هذا الأمر كما قال -عزَّ وجلَّ- في سورة التغابن: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)، لا بد أن نعرف أننا مختبرون بأحبابنا كما أننا مختبرون بأعدائنا ومن لا يوافقنا.

الأسرة مهمة، تربية الأبناء مهمة، إرشاد الزوجة مهمة، الأسرة مهمة في بناء المجتمع، لكن هذا لا يعني ألا يكون الإنسان متوازنًا في هذه العلاقة، المطلوب التوازن، والمطلوب أن نعرف أن الأموال والأولاد فتنة. الأسرة مهمة لكن التوحيد أهم، العائلة مهمة لكن رباط الدين أهم؛ لذلك جاء ختام هذه السورة -التي هي موضوع نقاشنا- يلفت لنا النظر إلى هذا الموضوع بطريقة بديعة. فننظر إلى ختام الآيات من الآية العاشرة حتى الثانية عشر، نسمع الآيات ثم نبدأ في مناقشتها بشيء من التفصيل:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (10) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (11) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)

هذه الآيات الكريمات ترشدنا إلى أمر مهم، وهو أن **الله يضرب لنا الأمثال لنتصور الحقائق ونتيقن بها،** وهذه **مهمتنا،** أن نبذل جهودنا في النظر في الحقيقة والبحث عنها، ورب العالمين ييسر لنا ذلك بضرب المثال.

ضرب الله -عزَّ وجلَّ- هنا لنا مثلين بصنفين من النساء. أمامك أربع نساء، المثل مضروب بالنساء، ومضروب بكل الناس، وهنا ستتبين لنا أكثر المهمة التربوية إن شاء الله.

هذان المثلان ضُربا لأجل تصور رباط العقيدة ورباط التوحيد أنه فوق كل الروابط. الرابطة الأسرية يمكن أن تنحل، تنفسخ، لكن الرابطة الإيمانية لا تنحل، فهي تتكون أصلًا بطريقة شرعية واضحة تكون أنت حريص عليها. وإن شاء الله يتبين أكثر في الكلام.

نأتي للمثل الأول: هذا مثل ينتفع منه الخلق كلهم. مَثل يصور الذين كفروا، مثل للذين كفروا، كأنه إرشاد للذين كفروا فكروا في هذا الموضوع، وهو مَثل جاء بالذين كفروا. تصور هذا البيت، ونحن نتكلم هنا عن بيتين بنفس الصورة، هذا بيت فيه نبي، يتوقع أن هذا البيت أهله قائمين بأمر رب

العالمين، ويتوقع أن أهل هذا البيت كلهم سائرين بنفس المسار، هذا التصور موجود في عقول الناس مما أدى إلى فجوة كبيرة في العمل.

المطلوب منا: أن نصحح تصورنا، فماذا نفعل في تصحيح تصورنا؟ نعرف أن المسؤولية فردية، فهذا الرجل وهذه المرأة كل منهما مسؤول عن نفسه يطلب لنفسه الإيمان، فتصور هذه امرأة نبي من أولي العزم من الرسل، نوح -عليه السلام- ثم المرأة الثانية امرأة لوط، هم في بيوت أنبياء لكن لم تؤثر فيهم النبوة، ولم يؤثر فيهم نزول الوحي! بمعنى أن الإنسان -هو الذي يختار لنفسه ما هو الطريق الذي يسير فيه- يمكن أن يقبل الدين أو يرفضه، فلا تتصور أن وجود الإنسان في مجتمع جيد يعني أنه سيكون جيدًا، بل أنت بنفسك تختار طريقك، لا تطمئن فقط لوجودك في مجتمع جيد، أنت يمكن أن تكون في مجتمع جيد لكن تجد نفسك أنت لست بجيد!

تصور هذه المهمة التربوية: المسؤولية الفردية لإصلاح النفس.

معنى هذا أن الإنسان حينما ينظر إلى الواقع الذي يعيشه ويرى بيت علم، بيت إيمان لكن فيه نساء بعيدين عن هذا كله تمامًا في اهتماماتهم وفي كلامهم، وأحيانًا حتى في مظهرهم يظهر عليهم خلاف ما يجب أن تكون عليه المرأة المسلمة.

حينما نرى مثل هذا نفهم أمرين:

الأمر الأول: أن المسؤولية مسؤوليتك الفردية، أنت تطلب لنفسك الصلاح، الخير والشر واضح أمامك وأنت تختار.

والأمر الثاني: نفس المربين، نفس الآباء والأمهات الصالحين عليهم أن يفهموا هذا الأمر بصورة جيدة، يفهمون أنه لا يكفي وجود المجتمع الجيد لكي يخرج الأبناء جيدين، وإنما الأمر يحتاج إلى مزيد دعاء ورجاء وذلّ وانكسار ومزيد من المناقشات والحوارات، علّ الله أن يشرح صدورهم للحق. أنت مؤمن، قلبك ممتلئ بالإيمان، مُصلٍّ، عابد، ثم تفاجأ بأبناء يناقشونك في الثوابت ويتركون الصلاة! وربما كانوا فتنة عليك حتى زهدوك في العمل الصالح. فالأمر خطير!

المهمة التي نحتاج إلى التركيز فيها: شعورنا تجاه أنفسنا أن وجودنا في مجتمع جيد لا يعني أننا جيدون، إنما هو اختيار الإنسان للطريق فلا يتكئ على أنه موجود في مجتمع جيد.

في الآية أن الله ضرب (مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا)، يفكرون في هذا المثل ويرون أن القرابات لا تنفع ولا تشفع، فهذه (امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ)

أولًا: لم يقل الله: (تحت نبيين)، إنما قال -سبحانه وتعالى- : (تَحْتَ عَبْدَيْنِ)، بمعنى أن هذين العبدين الصالحين يمكن أن يشابههم عباد صالحون كُثُر، فيكون المثل يصلح لكل أهل الإيمان.

وثانيًا: تصور أن هذا عبدٌ صالحٌ؛ لذلك له مكانة عند الله -عزَّ وجلَّ- وكانوا تحت هؤلاء الصالحين لكن ما نفعهم الصلاح، فليس بين العباد وبين رب العالمين نسب، لكنه العمل الصالح.

نحلل شيئًا مهمًا وهو: لماذا فعلت هذا الفعل (امْرَأَتَ نُوحٍ) ، ولماذا فعلت هذا الفعل (امْرَأَتَ لُوطٍ)؟

الذي يظهر -والله أعلم- ما نسميه اليوم بـ"ضغط المجتمع"، كيف حين يصبح الإنسان ضعيفًا، وينظر للأمور بالعدد وترى امرأة نوح أن نوحًا أتى بشيء مخالف لما عليه الناس، وهؤلاء كلهم رافضين، وهؤلاء كلهم مؤمنين، فلكي تبقى مقبولة في مجتمعها -والله أعلم- كانت تخبر قومها بمن يؤمن من الناس بنوح -عليه السلام-

هذا يذكرنا بشيء آخر خطير وهو الدجال، أكثر أتباع الدجال من النساء، وأكثر أهل النار -والعياذ بالله- من النساء؛ لذلك أمرنا النبي-صلَّى الله عليه وسلَّم- بالتصدق لكون النساء غالبًا يحصل منا حالة من الانبهار بالزخرفة.

في سورة الزخرف رب العالمين قال: (أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) الكلام عن الأنثى أحد عيوب وميزات الأنثى في نفس الوقت أنها لا تستطيع أن تصبر على الزخارف وتحقق المسائل، فهي في حالة انبهار، فضغط المجتمع يجعلها تواكبه. لماذا قصصتِ شعرك بهذه الطريقة؟ ما عندها جواب إلا أن تقول: "موضة" أو أي كلمة من هذه الكلمات. لماذا تغير حجابك بهذه الصورة؟ تقول:

"هل هذا حرام أو غير مناسب؟" ضغط المجتمع! تقولين لها: لماذا ألبستِ ابنتك لباس الفاسقات؟ تقول: هذا الموجود في السوق ماذا نفعل؟! كأنها لا حيلة لها.

وهكذا تأتي المرأة أضعف جانبًا تجاه ضغط المجتمع، وخطرها أنها تضغط على الزوج، وهذا يعيدنا إلى سورة التحريم.

خطر هذه المرأة أنها بنفسها تزخرف لها الأمور بسرعة، ولا تصبر على هذه الزخرفة وتقتنع بأي قول سائر، والمجتمع يضغط عليها فتضغط على الزوج، فالزوج يحرم أمورًا أو يحرم نفسه من الخيرات بناء على أن هذه الزوجة هذا وضعها.

مثلًا يريد أن يعتكف تقول: "هذه أيام نجتمع فيها ونأكل ونشرب سويًّا ولنا فيها ذكريات ابقَ معنا!" يريد أن يفعل كذا من الطاعات فتزين له تركها، يريد أن يطلق لحيته تقول له: "هذا أمر ليس مناسب للصورة التي أنت فيها ووضعك...!"

المرأة لها أثرها الشديد في صلاح الأسرة، ولها أثرها الشديد في إقناع الرجل. وكلما كانت المرأة أكثر نباهة وأكثر

إيمانًا كلما كانت سببًا لتحبيب الإيمان لهذه الأسرة ولاقتراح حلول تنفع هذه الأسرة.

لذا تأتي أم سلمة كنموذج في هذا، يدخل عليها الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم- وقد حزن لأن أصحابه الكرام متمسكون بالدخول إلى مكة في موقف الحديبية، فترشده للحلق، تقول: "قوم يحبونك ويقدرونك ويعلمون مكانتك عند رب العالمين، افعل سيفعلون مثلك." فيكون هذا إشارة إلى ذكائها ونباهتها ومعرفتها بالنفوس. فما كان من الرسول-صلَّى الله عليه وسلَّم- إلا أن أطاعها وفعل، فكانت النتيجة.

فالمرأة مؤثرة، وفي عامة الناس تجد الرجل يقاوم رأي المرأة، ربما يقاومه أمامها لكنه يتبنّاه ويتكلم به في كل فرصة أتته إذا دخل إلى قلبه، وهي كلامها وطريقتها يدخل الكلام إلى قلبه، وهي شديدة التأثير وشديدة التأثر، هذا هو الإشكال الكبير. أمام قوة تأثرها يأتي السؤال:

هل معنى هذا أن كل النساء بهذه الطريقة: أي زخرفة تأخذها وأي ضغوط تسير معها؟ لا.

ضرب الله مثلًا لحالة لا يمكن أن يصل أحد إليها، هذه الحالة كأنها في قمة النموذج، وأي أحد يقارن نفسه يقول: "أنا ما وصلت لهذه الحالة" هذه امرأة فرعون، هذه الحالة أنها امرأة أكبر إنسان متجبّر عرفه التاريخ، ضرب الله به مثلًا في القرآن ووصل به الحال في غلوّه في نفسه أنه ظنّ في نفسه أنه الإله وأنه رب الناس! هذه المرأة ضربها الله -عزَّ وجلَّ- مثلًا للذين آمنوا، نموذجًا لمن آمن، ماذا فعلت خلاف امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام؟

امرأة نوح وامرأة لوط خانتا الأمانة، ليس أنهما وقعتا في الزنا مثلما تستعمل كلمة "خيانة" اليوم، بل المقصود بالخيانة: أن امرأة نوح كانت تدل قومه المشركين عليه، وكلما آمن أحد وأتى يتعلم من نوح الدين تخبر عنه، تقوم بعملية التجسس، وهنا تأتي الخيانة، وتنقل الأخبار. ومثلها امرأة لوط شاركتها في هذه الخيانة، في التجسس، كلما يأتي ضيف للوط -عليه السلام- وهو يستقبله سرًا تذهب فتخبر عنه. هذا -والله أعلم- إشارة إلى استجابتها لضغوط المجتمع.

أخذنا من امرأة نوح وامرأة لوط أنه: توجد ضغوط للمجتمع والمرأة سريعة التأثر بهذه الضغوط فتستجيب مباشرة إلى درجة أنها يمكن أن تكون جاسوسة، تخبر عن الأحوال ومن هنا أتت كلمة "الخيانة".

أعظم ضغط يمكن أن تتصوره، فرعون المتكبر المتجبر الذي وضعه كذا وكذا، ماذا فعلت امرأته؟ تمسّكت بالحق، وهذا المثل ضُرب للذين آمنوا رجالًا ونساء، تمسّكت بالحق في أصعب بيت يمكن أن يتمسّك فيه بالحق، عندما يقال: "أنا لا أستطيع أن أتمسك بالحق لأني في مجتمع ما فيه حق، ما أستطيع أن أتمسك بالإيمان لأني في مجتمع لا إيمان له" نقول: هذا المثل الذي ضُرب لك يبين أن الإنسان إذا عرف الحق وعرف الخير، وابتلي بأنه لا جماعة تدله على الحق أو تتمسك معه بالحق، فعليه أن يتمسك بحبل الله ويسأل الله الثبات، وتبقى رغباته كلها إلى الله.

لذلك انظر لهذه المرأة، ما وقف بجوارها أحد، آمنت سرًا، وكان الإيمان ينتشر سرًا في قصر فرعون، لما آمنت وعلم فرعون بذلك عذّبها، وهي ملكة! عذّبها من أجل أن تترك هذا

الحق، هي لا فكرت في ضغط المجتمع ولا ضغط الزخرف ولا كلام الناس ولا عذاب فرعون، فكرت فقط فيما وجدته من الحق، فكرت في لقاء الرب -سبحانه وتعالى-.

فالله ضرب مثلًا لأهل الإيمان بها، امرأة تصبر على ترك القصر، وتصبر على الزخارف وتتركها، وتصبر أن عبيدًا لها يعذبونها!

واليوم ترى الناس يتخلون عن دينهم بأقل دعوى! وتصورها وهي تطلب، وطلبها فيه شيء عجيب، بعدما كانت سيدة هذا القصر حصل لها ما حصل بسبب إيمانها، لكنها مؤمنة أن العوض من الله. فقصر فرعون بالنسبة لها بعد الإيمان أصبح ذا وحشة، أصبح مبغوضًا، وفرعون نفسه أصبح مبغوضًا، فطلبت من رب العالمين بيتًا بدلًا من بيتها، ومجاورة لرب العالمين بدلًا من مجاورة الكفرة الفاجرين.

وتلحظ أنها ما قالت لفرعون: "طلقني"، وما قالت: "يا رب اجعله يطلقني"، ولا أي من هذا الكلام، وإنما فوضت الأمر لله. كيف يخرجها الله من فرعون؟ الله أعلم، هي قالت:

(وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ) ومن أعمال فرعون، نجني من عذاب فرعون ومن كفره، خافت أن يتمكنوا منها فيجعلوها ترتد.

لذلك ثلاثة يجد بها الإنسان حلاوة الإيمان، منها: أن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار، لاحظ دعاءها: (وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)!

يا لها من مهمة تربوية عظيمة، المسؤولية الفردية، مقاومة الضغوط الاجتماعية، المسؤولية فردية لا بد من فحص الأفكار.

ومثلها حينما ننتقل إلى هذا المثل العظيم للعفة والمحافظة على النفس والصبر حتى على هذه الضغوط الاجتماعية، **مريم ابنه عمران**، كانت سائرة على الطريق وبقيت سائرة على الطريق، معها الحق، وتعرف أن هذا حق وتعرف من نفسها أنها طاهرة، شريفة، بعيدة تمام البُعد عن الزنا، وأن هذه من آيات الله. قواها رب العالمين فوقفت في وجه الكافرين المتهمين لها بما هي منه بريئة. آمنت بالله، ورضيت بقضاء الله، وأعانت ابنها على القيام بمسؤوليته،

فهذا مَثَل عظيم لمن قد يبتلى في دينه، وقد يتّهم فيه. كيف أنه يتمسك بحبل الله ويثق في الله ويعلم أن الله مطلع وأنه يُظهر الحق.

المرأة -بفضل الله- تستطيع أن تقف أمام كل العوائق، تستطيع أن تجاهد وتقف أمام الزخارف، أمام ضغط المجتمع.

المرأة لا بد أن تعلم أن عليها مسؤولية فردية كما أن عليها مسؤولية اجتماعية.

المرأة أكبر وأقوى وأهم درع يحفظ المجتمع، ومثل هذا يمكن أن تكون بخلافه. يمكن أن تكون أقوى وأكثر الفتن التي تفتن المجتمع، يمكن أن تكون مانعة للفتن ويمكن أن تكون بوابة الفتن.

لذا إذا راجعنا سورة النور وسورة الأحزاب سنجد اتصالًا خفيًّا لطيفًا بين ذكر المنافقين والنساء؛ لأن أهل النفاق هذه هي قضيتهم، يأتون للمرأة التي لها الأثر العظيم في الأسرة ولها التأثير العظيم على الرجل ويتلاعبون بأفكارها لتصورهم ضعفها، ولتصورهم نفسيتها وميلها للزخارف،

وهي في الخصام غير مبين فأي أحد يستطيع أن يقنعها بأي شيء؛ لذا تكون أكثر أتباع الدجال.

وهذا يعيدنا مرة أخرى للنظر للمسألة عمومًا، المرأة كالرجل عليها مسؤولية فردية، التأثر بضغط المجتمع ليس عذرًا لعدم القيام بهذه المسؤولية، المهمة التربوية هنا تدور حول هذا الأمر: أنت مسؤول عن نفسك، لا تكن إمعة، متى ما انتشر الصلاح في المجتمع أصبحت صالحًا، ومتى ما انتشر الفساد وتسهلت أسبابه ركبت موجته، هذا إنما هو من ضعف الإيمان وضعف الشخصية، وهذه هي الصورة التي مرت معنا في آيات سورة سبأ، صورة الضعفاء المستجيبين للمتكبرين، ضعفت نفوسهم عن تقدير نعمة الله، ضعفت نفوسهم عن تصور كيف أن الله -عزَّ وجلَّ- أعطاهم في أيديهم سلاحًا يستطيعون به أن يقاوموا كل شر، استحقروا أنفسهم فأصبحوا ضعفاء، وأتى المستكبرون طلبوا منهم أن يكبّروهم ويعلّوهم وأن يجعلوهم أمام أعينهم، فقبلوا هذا الضغط فاستجابوا لهم.

لذلك في سبأ يقولون: (لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ) وهذه طريقة في التفكير، لو كان المجتمع صالحًا لصلحت، لو كان المجتمع فيه خير لكنت من أهله، لو كان المجتمع تقيًّا لكنت تقيًا.

نقول: وامرأة فرعون ماذا تمثل لك؟ لا صلاح ولا فلاح حولها، بل حولها أكبر المجرمين، ثبتت وطلبت من رب العالمين مجاورته -سبحانه وتعالى- والنجاة من هذه الحال!

نسأل الله -عزَّ وجلَّ- بمنّه وكرمه أن يقوي إيماننا، ويحسن لنا في الخواتيم، ويجعلنا مؤمنين ثابتين، يصلحنا ويصلح بنا ويصلح مجتمعنا، نعوذ بالله من الخذلان، نعوذ بالله أن نكون سببًا لشر على أنفسنا أو نجره إلى مسلم، والحمد لله رب العالمين.